(٨)
الموت
بوابة الآخرة

obeikandl.com

الشيء المؤكد أن كل كائن حي مصيره الموت.

ولا أحد مات وعاد إلى الحياة حتى يخبرنا عن طعم الموت وما وراء هذا الموت.

إنه شيء مجهول..

ومن هنا خشيه الناس وخافوه.!

إن الموت يعنى أن الروح فارقت الجسد.. الروح تصعد إلى بارئها فى عالم البرزخ.

والجسد يعود إلى التراب إلى أن تعود إليه الروح يوم الدين .. هذا هو ما يقرره الإسلام.

فنحن لانعرف عن الموت وما وراءه من جنة أو نار إلا من خلال ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز.

﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٢].

لقد علمت الأديان السماوية الإنسان أن الحياة مجرد جسر لعالم خالد .. عالم ينصب فيه ميزان العدل، لينال كل إنسان جزاءه على قدر ما قدم فى دنياه من خير أو شر.

والحضارة المصرية القديمة هى الأخرى قد أقرت بوجود هذا العالم الخالد بعد الحياة، وكانت فلسفة أخناتون من أرقى الفلسفات العقلية التى اهتدت أن وراء هذا الوجود ربا واحدا.. هو واهب الحياة، وما الشمس إلا رمزاً لهذه العبادة.

صحيح أن ثورة أخناتون قد أخمدت بعد وفاته، وبعد فترة حكم استمر سبعة عشر عاما، ولكن دعوته أدهشت المفكرين حتى رفعه البعض منهم إلى مرتبة عالية من كبار المفكرين لأنه اقترب من فكرة التوحيد.

وما تركته لنا الحضارة الفرعونية من أهرامات ومقابر يعنى أنهم آمنوا بالبعث، وأنهم يحاولون الاحتفاظ بأجسادهم المحنطة سليمة.. انتظارا لهذا البعث.

والديانة اليهودية تؤمن بالبعث كما قال موسى عليه السلام للذين آمنوا بدعوته، إلا أن اليهود حرفوا التوراة بعد ذلك.. وعندما كتبوا التوراة أثناء السبى البابلى أضافوا إليها من عندهم الكثير.. فقد وضعوا فيها أحلامهم وأمانيهم وأطماعهم التوسعية.. ومن الذى حرفوه حقيقة البعث.. فهم يرون أن الأرواح تذهب فى مكان مظلم سحيق، هو الأرض السفلى أو الجُب.. ويطلق عليه اسم (شوءول) أو (شيول) .. هى الهاوية التى تأوى إليها الأشباح بعد الموت ولا نجاة منها لميت. وأن الذى ينزل إلى هذه الهاوية لايصعد.

ولم يكن غريبا على اليهود الذين عصوا نبيهم فى حياته أكثر من مرة، أن يشوهوا التوراة.. وأن يدخلوا فيها ما ليس منها.

فإذا انتقلنا إلى المسيحية التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام، فإننا نراها وقد جاءت فيها ظروف تقدس المادية، فأرادت أن تخفف

من غلواء المادة، وأن تعلوا من قيمة الروح، وأن تكون دعوة روحية خالصة.. وأن يكون شعارها المحبة، على أساس أن المحبة هى جماع الفضائل.. وأن الحب يسمو بالإنسان. ولهذا قال السيد المسيح فى عظته على الجبل «أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم.. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم. أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك. وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا..» [إنجيل متى].

وجاء فى الكتاب المقدس.

«من لا يحب أخاه يبقى فى الموت.. كل من يبغض أخاه قاتل نفس. وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية».

والحياة الأبدية هى الإيمان بما بعد الموت.. بعالم الجزاء.

والمسيحية تتحدث عن قيامة المسيح، وقيامة الأموات، وعودة الأجساد إلى الحياة كما يؤكد القديس بولس على البعث.. بعث الروح وبعث الجسد أيضا.

ولكن التحريف أصاب هذه العقيدة بسبب محاولة ربطها بالفلسفات المختلفة، وخاصة فلسفة أفلاطون والأفلاطونية الجديدة، ومن هنا لم يظهر العالم الآخر فيها بالصورة التى كان يدعو إليها السيد المسيح..

ولكن الصورة المتكاملة للبعث نراها فى التصور الإسلامى.. التصور الإسلامى يرى أن الحياة يأتى بعدها حياة البرزخ، تمهيداً ليوم القيامة.. يوم الحساب والجزاء.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

ولعل علامة استفهام كبيرة تدور فى ذهن كل منا عن ماهية الموت، وعلاقة النوم بالموت كما جاء فى الآية الكريمة التى ذكرناها فى أول هذا الفصل..

لعل ما قرأته فى كتاب (النوم والرؤيا والأرق بين الدين والعلم) للدكتور أحمد فتحى الزيات والدكتور ممدوح الوكيل، يقرب هذه الصورة.. فهما بعد أن يتحدثا عن فائدة النوم يتحدثا عن علاقة الموت بالنوم من خلال منظور علمى. يقولان:

«وإننا نرى أيضا أن كل النظريات لم تتعرض لطبيعة النوم وماهيته، وعلى ذلك فإن هناك فكرة تفرض نفسها على أى مفكر قد ينظر إلى الموضوع بعين خالية من التعصب، تلك الفكرة التى نستقيها

من فكرة تشابه الموت والنوم فى أوجه كثيرة، واختلافهما فى درجة إبطاء الوظائف الجسمية، وقدرة الإنسان على أن يوقظ النائم وعدم قدرته على أن يحيى الميت.

نقول أن تلك الأفكار لابد أن تؤدى إلى الفكرة التى تقول أن الإنسان الحى يتكون من شىء مادى هو الجسد يحل فيه شىء غير مادى هو ما يطلق عليه الروح أو النفس. وهذه تؤثر فيه فتؤدى إلى حركته واستجابته للمؤثرات بشكل واضح.. تلك النفس أو الروح تنفصل عن الإنسان أثناء الموت أو النوم ولكنها ترجع إليه فى الحالة الأخيرة ولاترجع إليه فى الحالة الأولى كما يرشدنا إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد يعتبر البعض أن الأشياء المعنوية لايمكن أن يكون لها تأثير مادى، ولكن الدكتور كلارك كيندى الأستاذ بجامعة لندن يرد على ذلك قائلا: «أن الإنسان إذا أراد الحركة وحرك يده فإنما هناك شىء معنوى غير مادى يؤدى إلى شىء مادى.. أى أن الإرادة وهى شىء معنوى تؤدى إلى الحركة وهى شىء مادى».

* * *

الموت إذن هو الحقيقة المؤكدة الذى لن يفلت منه كائن حى. . وهو السر الغامض الذى حيَّر المفكرون والفلاسفة وهم يحاولون أن يصلوا إلى حقيقته وما وراءه، ورغم أن الموت حق. . وأنه البوابة التى لابد أن يدخلها كل المخلوقات. . وأنه أثار العديد من علامات الاستفهام، وألفت فيه آلاف المجلدات، وجاء ذكره على لسان ملايين الشعراء عبر مختلف الصور وهم يرثون موتاهم، إلا أنه ظل لغزا محيرا ومخيفا، لأن تصور أن يحيا الإنسان بعد أن يموت ويتحلل ويتحول إلى تراب، ما كان يمكن أن يتصوره الناس ما لم تكن لهم عقيدة سماوية تبشرهم بالحياة مرة أخرى. . ومن هنا نرى فى الجاهلية من كان يردد هذا البيت الشهير:

حيـــاة ثـم بعث ثم نشـر حديث خرافة يا أم عمرو

بل أن أحدهم وهو يرثى من قتل يوم (بدر) من كفار قريش وهو شداد بن الأسود. . قال:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء أوهام

لم يكن هؤلاء الكفار يصدقون أن هذا الإنسان الذى تحول إلى تراب يمكن أن تدب فيه الحياة من جديد، ولكن بعضا من عرب الجاهلية وكأنهم لايتصورون أن يتحول هذا الإنسان الذى كان ملء

السمع والبصر إلى تراب، أن حياته هى نهاية المطاف، بل تخيلوا أن من دماء الميت التى توجد فى دماغه وأجزاء من جسمه يتحول إلى طير، يزور قبر صاحبه كل مائة عام؟!

لذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام منكرا هذا الزعم : «لا هامة ولا عدوى ولا صَفَر».

وهناك من العرب من كان يؤمن بالله، هؤلاء الذين تواترت لديهم دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولكن بتقادم العهد تناسوا رحيق السماء، فآمنوا بأن لهذا الكون إلهاً خالقا، ولكنهم لم يؤمنوا بالبعث، وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم بقوله:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨].

الإسلام إذن هو الذى أوضح حقيقة الموت كبوابة للعالم الآخر بعد انتقال الروح إلى الملأ الأعلى..

ففى أعقاب معركة (بدر) عندما انتصر المسلمون على مشركى مكة، أمر الرسول ﷺ أن تحفر حفرة كبيرة تلقى جثث موتى المشركين، وهالوا عليهم التراب، ووقف الرسول عليه الصلاة والسلام على شفة القليب (الحفرة) .. وقال:

يأهل القليب.. بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس!

وأخرجتمونى وأوانى الناس.

وقاتلتمونى ونصرنى الناس.

هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟

فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا .

فقال المسملون:

- يارسول الله، أتنادى قوما جيَّفوا؟

فقال النبى ﷺ:

- «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق».

* * *

ونعود إلى دراسة (الروح) من خلال الرؤية الإسلامية، وقد أعجبنى ماكتبه الدكتور أحمد الشرباصى عن الروح فى كتابه (من أدب القرآن). . فهو بعد أن يستعرض الآيات الشريفة التى تتناول الروح والأحاديث الشريفة الصحيحة يقول:

«والذى أفهمه من خلال الفكر الإسلامى أن الروح موجودة، ولكن جوهر حقيقتها غير مفهوم لنا، وأنها أسبق وأشرف من المادة. وأننا نستطيع التعرف على كثير من آثارها وظواهرها، وأن أثارها تظهر لنا حين اتصالها بالجسد، وأن الجسد لاقيمة له دون الروح وأن البحث قد شغل وسيظل يشغل العلماء والحكماء والشعراء والأدباء

إلى ما شاء الله. . وكأن للروح جاذبية قاهرة تشدنا إليها فنسارع نحوها. وكلما خطونا نحوها مرحلة بعدت عنا مراحل. وتركت لنا عن طريق البحث أشياء من (مخلفاتها) وكأنها حسناء تبرقعت بحجبها وأشعارها. ولكن أشعة ساطعة من بهائها تنفذ من خلال حجبها، فتشاغل أبصارنا وبصائرنا. فنجد المسير إليها والطريق طويلا طويلا طويلا. .

وهذا مثلا هو الشيخ الرئيس ابن سينا أو على بن الحسين بن عبد الله المُتوفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة يصوغ بضعة وعشرين بيتا فى موضوع (الروح) وتسمى هذه الأبيات (عينية ابن سينا فى الروح) فتملأ الدنيا وتشغل الناس، وتوضع عليها الشروح بعد الشروح، وتصاغ المعارضة بعد المعارضة.

وهذه الأبيات تؤكد لنا أن الروح جذابة ذات بهاء وسناء، وأنها ممنعة مبرقعة، وأنها كما أشار ورمز فى قصيدته، وكما صورت (دائرة المعارف) جوهر قائم بذاته، لا عرضا من أعراض الجسم.

ويرى أن علاقة الروح بالجسد علاقة جوار عرض لا علاقة اتحاد ذاتى.

وكما هبطت الروح إلى الجسم من الملأ الأعلى وهى كارهة، تفارقه عند الموت وهى كارهة، لأنها ألفته مع طول الحوار. وكأن الجسم سجن كثيف أو قفص ضيق يحول دون بلوغ الروح كمالها.

وكأنها لا تألف مجاورة الجسد إلا بحكم الاعتياد، فإذا فارقته بعد اكتمال ملكاتها العقلية وبلوغها الكمال بالتأمل انكشف عنها الغطاء، وأدركت العادة.

وما الحياة الدنيا سوى مدرسة أهبطت الروح إليها لتكسب المطالب العقلية، فإذا نالت هذه المطالب، تمتعت بعد الموت بالسعادة الأبدية.

وإذن فسعادة النفوس الطيبة والأرواح الخيرة العارفة تكون فى اتصالها بالعقل لعقال، وأما النفوس الشريرة التى ألفت السوء والإثم فإن جزاءها هو العذاب الدائم، ومن هنا يكون الثواب فى الآخرة متناسبا مع كمال النفس فى الدنيا.

ويورد لنا القصيدة الرائعة للفيلسوف ابن سينا عن الروح والتى مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع

ورقـــــاء ذات تعـزز وتمنـع

محجوبة عن كل مقلـة عارف

وهـى التـى سفـرت ولـم تتبرقع

وصلت على كره إليك ، وربما

كرهت فراقك وهى ذات تفجع

ولا نملك ونحن نطوف هذا العالم الذى لايستطيع الإنسان أن يعيش بدونه، ولا يملك إزاء غموضه ووضوحه فى نفس الوقت إلا أن نعيد قراءة قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

* * *

ولأن الموت حق..

فإن الصالحين من عباد الله لايخافون منه، ولايخشونه لأن بهم شوقا إلى لقاء خالقهم الأعظم.. إن فرحتهم عظيمة بهذا اللقاء أعدوا أنفسهم له.. إنهم يريدون الاتصال بملكوت الله، بعد أن تزول عنهم غشاوة الجسد، وسجنه للروح.. إن الروح تتوق إلى بارئها.. تتوق إلى النور القدسى، إلى عالم البهاء والأنوار.. إلى عالم لايمكن تصوره بالعقل، ولكنهم يرونه بنور البصيرة، ومن هنا نرى أبو الدرداء يقول:

«أحب الموت اشتياقا إلى ربى، وأحب الفقر تواضعا لربى، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتى».

فالموت عند الصالحين، وأهل الصفاء من الصوفية، هو الطريق إلى العالم الذى كانوا يحلمون به.. إنهم يطيرون شوقا وحبا لله، والموت هو الذى سيحقق لهم هذه الأمنية للقاء الحبيب..

إنهم آمنوا أن حياتهم الدنيا قصيرة.. وأن منتهى أمالهم أن يعودوا إلى ربهم طاهرين.. غير محملين بالخطايا.. فهو لايريد الغنى والجاه والثروة.. فكل هذه الأمور قد تفتن الإنسان عن الاقتراب من ربه، فكان من أمالهم ألا يفتنوا بدنياهم بوسيلة من وسائل الإغراء التى تدفع الإنسان إلى الوقوع فى المعاصى، بل انهم تمنوا الصبر على الفقر والمرض، حتى يكون فى ذلك تكفيرا عما ارتكبوه من الذنوب فى دنياهم فيلقوا الله سبحانه وتعالى، ولم يعلق بهم عوالق من شوائب الدنيا.. فإذا ما جاء الموت، وهو مرحلة فى حياة الإنسان كانوا قد استعدوا لما بعده.. لأن الموت والحياة وجهان لعملة واحدة.

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢].

والموت ليس نهاية المطاف ولكنه بداية حياة جديدة ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠].

وإذا كنا لانعرف يقينا ما يجرى للإنسان عندما يودع الحياة، لأن من يودع الدنيا لايعود إليها أبدا، إلا أننا نوقن بما جاء فى القرآن الكريم والسنه المطهرة، بأن الإنسان يعذب وينعم فى قبره.. ولكن كيف؟

- هذا غيب والغيب لا يعلمه إلا الله.

إن الجسد الذى خُلق من التراب ويعود إلى التراب.. والروح التى هى نفحة من الله تعيش فى عالم البرزخ.. وهو ما يتصل بين

الحياة الدنيا والآخرة.. أو هى فترة الانتقال بين الحياة .. وبين يوم البعث والنشور.. وهذه الفترة تعيشها الروح بلا إحساس بلا زمن، لأنها خارج نطاق الزمن.. ويكون لها حياتها حسب ما عملت فى دنياها - وإن كانت هذه الحياة أيضا غيب.. فالقرآن الكريم مثلا يحدثنا عن حياة الشهداء فيصفها بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

إذن فلنا حياتنا فى عالم البرزخ.. لنا وجود روحى.. تمهيدا لهذا اليوم العظيم.. يوم ينفخ فى الصور.. ويقوم كل من عاشوا فى الحياة ليواجهوا واقعاً جديداً، وحياة جديدة.. بعد أن ينصب ميزان العدل.. ويصنف الناس حسب أعمالهم فى الدنيا.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥١-٥٣].

فالإنسان كما يقول فيلسوف الإسلام «ابن سينا»:

«اعلم أن الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة لايفنى بعد الموت، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى. ذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن لأنه محرك البدن ومدبره ومتصرف فيه. والبدن منفصل عنه تابع له. فإذن لم يضر مفارقته الأبدان وجوده...».

ويقول الإمام الأصفهانى عن الخلود:

«إن الموت المتعارف الذى هو مفارقة الروح للبدن هو من الأسباب الموصلة الإنسان إلى النعيم الأبدى، وهو انتقال من دار إلى دار، فهو وإن كان فى الظاهر فناءً، واضحملالاً فهو فى الحقيقة ولادة ثانية. فالموت أى مفارقة الهيكل إذن ضرورى فى كمال الإنسانية، ولكون الموت سببا للانتقال من حال أوضع إلى حال أشرف وأرفع سماه الله تعالى توفيا وإمساكا عنده فقال تعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد قال الشيخ حسنين مخلوف مفتى مصر الأسبق:

«ينبغى أن نعلم أن عالم الأرواح يختلف عن عالم المادة اختلافا كثيرا فى أحواله وأطواره، فالروح وحى من أمر الله تعالى يملكها الله فى البدن فى الدنيا فتوجب له حسا وحركة وعلما وإدراكا ولذة وألما.. ويسمى بذلك حيا.. ثم تفارقه فى الوقت المقدر أزلا لقطع علاقتها به فتبطل هذه الأثار ويفنى هيكل البدن ويصيرا جماداً ويسمى عند ذلك ميتا. ولكن الروح تبقى فى البرزخ - وهو ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة من يوم الموت إلى يوم البعث والنشور - حية مدركة تسمع وتبصر وتسبح فى ملك الله حيث أراد وقدر، وتتصل بالأرواح الأخرى وتناجيها وتأنس بها سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات، وتشعر بالنعيم والعذاب واللذة والألم،

حسب حالتها وعملها فى الحياة الدنيا، وترد أفنية القبور، وتأوى إلى المنازل. وهى فى كل ذلك لايحدها مكان ولا يحصرها حيز. . . .»

* * *

وفى الغرب دراسات كثيرة حول الروحية، ولهم أبحاث كثيرة فى هذه المجالات. . هذه الدراسات إن دلت على شىء فإنما تدل على حرص الإنسان على معرفة ما سيؤل إليه أمره بعد الموت.

ونحن هنا نعرض لبعض هذه الأبحاث. . لا من حيث صحتها أو عدم صحتها. . ولكن لنلم بما يجرى من دراسات روحية فى عالم اليوم لمعرفة المصير الإنسانى. . بغض النظر عن مدى دقة هذه الأبحاث والنتائج التى توصلت إليها. . ولكنها فى كل الأحوال تعطى مؤشراً إلى حرص الإنسان فى عصر الذرة والإلكترونيات والإنترنت والتقدم العلمى المادى المؤهل، أن يعرف ما سوف يؤول إليه أمره بعد مفارقة الحياة.

ونقف وقفة أمام نموذج مما أورده الدكتور رءوف عبيد فى كتابه (ظواهر الخروج من الجسد. . أدلتها - دلالاتها) والذى يتحدث فيه عن جهود العلماء لمعرفة ظاهرة الموت، وخروج الروح من الجسد. . وهو فى هذا الكتاب يحدثنا عن هؤلاء الذين أصيبوا بحوادث، وما رأوه لحظة إجراء العمليات لهم، وكيف رأوا أشياء عجيبة. . رأوا كل ما يدور حولهم. . حتى العمليات التى أجريت لهم إلى أن عادوا من

غيبوبتهم، وصفوا ما رأوا وكان مطابقا للحقيقة، كما حدثنا عن أراء العلماء والظواهر الروحية العجيبة التى تثبت بما لايدع مجالا لشك، أن الروح خالدة، وأن لها عالما آخر مغايراً للجسد، ونقف عند نموذج من النماذج التى ساقها (عن الميلاد الثانى).. ويعنى عن الروح بعد مفارقتها الجسد، وكيفية هذا الميلاد يقول:

«لاريب أن النتيجة الحتمية التى يخرج بها الإنسان من كل ما تقدم هى أن الموت ليس فناء بالمرة بل مجرد ميلاد ثان للإنسان فى عالم آخر، أو بحسب تعبير أنيشتين العالم الرياضى:

«إن الموت جواز سفر إلى مكان آخر».

وقد وضح كيفية هذا الميلاد الثانى بعض وسطاء الجلاء البصرى عند حضورهم فى ساعة الاحتضار بالقرب من (المنتقلين) ومن ذلك ما رواه الوسيط أندرو جاكسون دافيز فى مؤلفه عن (الموت والحياة الثانية) وصفا لعملية الانتقال قائلا:

- قام الرجل على فراشه يعانى سكرات الموت. كان موته سريعا.. ازدادت سالبية الجسد وبرودته بازدياد الإيجابية والدفء فى الجسم الروحى.. وبردت القدمان أولا.. وظهر بريق فوق الرأس مباشرة مما يصح أن نسميه هالة مغناطيسية يراها كل ذى جلاء بصرى، وهذه الهالة انبعاث أثيرى ذهبى اللون يختلج وينتفض كأنه يحس ويشعر.

ثم وصلت البرودة إلى الركبتين والساعدين ثم امتدت إلى الردفين وامتد الانبعاث ولكن لم يرتفع بعد. وامتدت البرودة إلى الصدر والجانبين، استطال ذلك الانبعاث وتشكل بصورة إنسان وبقى متصلا بالمخ، ثم اختلجت الرأس من الداخل بهزه بطيئة عميقة ولكنها غير مؤلمة، فكانت كهزة ماء البحر الضعيف التموج.

أما قوى الرجل الذهنية فظلت سليمة حتى مات آخر جزء منه، وظل يصل ما بين هذا الانبعاث الذهنى والمخ خيط دقيق جدا من خيوط الحياة، ثم ظهر على جسم الانبعاث شيء آخر أبيض لامع فى شكل الرأس، بعدئذ ظهر وجه نراه، وبدأت بعد ذلك رقبة لطيفة وكتفان جميلان، وتلا ذلك بسرعة ظهور بقية أجزاء الجسم حتى القدمين، فإذا الجسم شبح زاه لامع كله، يزداد اصفراره قليلا عن الجسم المادى ولكنه نسخة طبق الأصل منه فى جميع تفصيلاته، وظل ذلك الخيط الرفيع الدقيق متصلا بالمخ القديم ولم يبق بعد ذلك إلا انفصال هذا العنصر الأثيرى، ثم أفلت الخيط وتحرر الجسم الروحى وانطلق (عن كتاب الأستاذ عبد الرازق نوفل «الحياة الأخرى»).

ويواصل الدكتور رءوف عبيد حديثه فى نفس الكتاب فيحدثنا عن حالة مماثلة ترويها السيدة دى مورجان عقيلة العالم الرياضى المعروف أوجستوس دى مورجان وقد وردت فى كتاب (من المادة إلى الروح).

«كنت فى ذات يوم بصحبة صديقة أعلم أنها ذات حاسة لرؤية روحية (جلاء بصرى) متقدمة بوجه خاص. وكنا إلى جوار فراش إنسان محتضر، وعندما تحول تنفس المحتضر إلى مجرد لهث شاهدت غيمة بيضاء تنبعث من الجسد وتقف على بعد حوالى عشرة سنتيمترات منه، ولاحظت أن صديقتى كانت تلاحظ بانتباه نفس الظاهرة.

وكانت عينا صديقتى تشرقان بضوء غريب عندما ينظران أشياء غير منظورة بحسب المألوف وقد اتجهنا لحظة نحو المحتضر ثم تحولنا إلى ناحية رأس الفراش حيث تكاثف الضوء فى صورة عمود يبلغ طوله حوالى ١٣٠سم. ومن هذا العمود انبعثت إضاءة ذات بريق متوسط بين بريق الشمس والقمر، وداخل هذا البريق أمكننى أن أرى إشراقا أشد حيوية. وأخذت المنطقة الوسط لهذا الضوء تتزايد فى إشراقها، ثم أخذت تستدير.. وتكررت نفس الظاهرة عندما لفظ الشخص المريض آخر أنفاسه، وعندئذ بدأ العمود المشرق آخذا فى الارتفاع والاختفاء».

ويقول الباحث: وعن طريق البحوث الروحية الجادة المثابرة أمكن الحصول على الآلاف من الصور التى تمثل أجسادا أثيرية مكان ذلك العالم الآخر، وتبدو مماثلة تماماً لأجسادهم الفيزيقية التى تخلوا عنها بالوفاة. وهى تثبت صحة ظاهرة التأثير المباشر للعقل فى الألواح الحساسة، كما تثبت فى نفس الوقت صحة وجود الأجساد الأثيرية وعدم فنائها بالموت.

والمراجع الروحية حافلة بالآلاف من هذه الصور التى جاءت تحت أدق رقابة، وأُلفت عنها مؤلفات من علماء كثيرين لا صالح لهم إلا فى تقرير الحقيقة العلمية مهما بلغت درجتها من الخطورة واتساع النطاق.

* * *

مهما يكن من شىء فإن حياة البرزخ.. أو الميلاد الثانى للإنسان عند خروج الروح من الإنسان حقيقة أكدها الإسلام.. لأن البعث حقيقة مؤكدة، ولكن بعد الرحيل ينقطع عمل ابن آدم، ولايبقى له إلا ما قدمت يداه، حتى أنه يتمنى أن يعود إلى الدنيا، ليعمل أكثر مما عمل، حتى ينال الجزاء الأوفى..

يقول تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

وتروى لنا كتب السيرة، كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى الناس عن النياحة على الميت، وما ذلك إلا أن هذا الميت قد انتقل إلى حياة جديدة بجوار ربه:

يقول عليه الصلاة والسلام:

«ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «اشتكى مسعد بن عباده رضى الله عنه شكوى فأتاه رسول الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم، فلما دخل عليه وجده فى غشيته فقال: أقضى. قالوا: لا يارسول الله. فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبى ﷺ بكوا قال: ألا تسمعون أن الله لايعذب بدمع العين ولابحزن القلب ولكن يعذب بهذا (وأشار إلى لسانه) أو يرحم».

والإسلام يراعى الطبيعة البشرية.. والطبيعة البشرية تتأسى وتحزن عند فراق الأهل والأحباب.. والرسول عليه الصلاة والسلام بكى عند فراق ابنه إبراهيم.. وعندما سأله عبد الرحمن بن عوف:

- وأنت يارسول الله؟

فقال عليه الصلاة والسلام:

«يا ابن عوف إنها رحمة.. إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا.. وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون».

وروى مسلم عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: كان ﷺ على جنازة فحفظنى من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نُزُله، ووسّع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيراً من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر» حتى تمنيت أن أكون أنا هذا الميت.

* * *

ولعل من أجمل الصور التى صورت العالم الآخر ما كتبه الإمام المحاسبى.. وقد أورده الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه «القيامة فى تصور المحاسبى».

ويحدثنا الدكتور عبد الحليم محمود عن يوم القيامة فى تصور المحاسبى فى كتابه بقوله:

«يتضمن القرآن آيات عديدة تتعلق باليوم الآخر، وخاصة فى الأجزاء المكية منه، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ

كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١ - ٥].

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١ - ١٦].

والمحاسبى يتحدث عن القيامة فى مواضع مختلفة من مؤلفاته، وهو يسعى بذلك - على النهج القرآنى فى تحذير الناس - إلى غرس التقوى فى قلوبهم بالوعد ثم الوعيد.. وقد خصص كتاباً لوصف اليوم الآخر، وما يلقاه الإنسان بعد الممات هو كتاب «التوهم». والواقع أنه لم يصدر هذا المؤلَّف كبحث دينى لشرح ما سوف يكون يوماً ما فى الآخرة، ولكنه يصور فيه العالم الآخر ومصير الإنسان حسبما يتخيله هو منهما... وهو لايناقش حجة، أو يذكر مصادر علم وإن كان لايخرج عن إطار فكر أهل السنة.

وكتاب التوهم هذا لم يصدر عن عالم إلهيات، بل هو من إنشاء شاعر روائى، وأروع ما يلفت نظر القارىء له - بادىء ذى بدء - أسلوبه العربى الباهر، الذى يعتبر من مآثر المحاسبى الباقية على مر الزمن، ثم إنه جعل من وصفه الآخرة نموذجاً أدبياً فريداً، واستطاع أن ينفذ بكل فصل منه إلى أعماق قلوب قارئيه.

وليس لنا هنا أن نتناول مزايا هذا الكتاب من ناحية اللغة والأسلوب، وإننا لنلتقى بعرض هيكله الأساسى.

يرى المحاسبى أن الإنسان إذا حضر أجله رأى ملاك الموت فى مظهر جميل غاية فى الجمال، أو فى مظهر مخيف، ويحدثه هذا الملاك إما بالوعود الباسمة، وإما بالوعيد حسبما أتى فى دنياه من خير أو من شر.

وبعد أن يهال عليه التراب، ينزل إليه ملكان يسألانه، فإذا كانت حياته خيراً يسرت عليه الإجابة، وإن كانت حياته شرا تردَّد فى الإجابة وأثقل عليه.

ويفتح الملكان طاقة فى قبره يلمح منها الجنة بكل روعتها، أو جهنم وما أعد فيها من عذاب، طبقاً لما كانت عليه إجاباته.

ويندثر الجسم الميت، ولكن يبقى فى روحه إلى يوم البعث.. إما السعادة وإما الشقاء. فإذا مات سائر البشر، ولم تعد الأرض تحمل مخلوقات من الأحياء، ولم يبق إلا الله الخالد، تسمع أرواح الناس نداء يدعوها إلى الحساب الأخير.

عندئذ تنشق القبور، ويخرج منها الجميع إلى حيث مصدر النداء.

وإذا اجتمع الكل، اندثرت الكواكب، وانطفأ نور الشمس والقمر، وأظلمت الأرض، وانشقت السماء، وعندئذ تنزل الملائكة لتنصت إلى الحساب الأخير.

ويرى الناس الملائكة كالعمالقة، فيسألونهم إذا كان الله بينهم، فيرتعد الملائكة لذكر اسم الله، ويجيبون: «سبحان الله! إنه ليس بيننا».

ثم يصطفون حول المخلوقات المجتمعة، ولما يكمل التفاف الملائكة بالمخلوقات تعود الشمس إلى الظهور من فوق رؤوسهم، وتبلغ حرارتهم مقدار عشر سنوات من الحرارة ولا ظل إلا ظل عرش الله، ويستمر لظى الشمس، والضيق الناتج عنه ثلثمائة عام، حتى تطلب المخلوقات حساباً ولو كان مصيرها إلى جهنم، وتتوسل فى سبيل ذلك إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى يشفعوا لهم فى ذلك عند الله، فيكون جوابهم: إن غضب الله عظيم، وإنهم مشغولون بأنفسهم وإن كانوا أنبياء.

عندئذ تسعى المخلوقات إلى محمد، فيشفع لها عند الله، فيأذن الله بالحساب.. ويأمر الله جبريل بأن يُحضرَ إليه جهنم، وترتعد جهنم نفسها خشية عقاب الله، ولكنها ترى أن غضب الله يقع على المخلوقات، فتغضب هى الأخرى عليهم، ويسأل الله أنبياءه: ماذا كان موقف الناس من دعوتهم؟

فيجيبون على استحياء: لسنا ندرى، وأنت العليم.

وفى هذه اللحظة يتنكر الابن لأبويه، والأبوان لابنهما، والصاحب لصاحبه، وكل يسعى إلى ذكر ما كان له من فضل على الآخر فى الدنيا حتى يُظهِرَه فى الآخرة.

وقبل الحساب تمد جهنم برقبتها لتلتهم بعض المخلوقات، مستبقة الحكم عليهم، ثم تأتى الجنة فتستقبل من المخلوقات من كان يحمد الله فى كل حال، ومن كان يسهر فى الليل فى ذكره، ومن لم تشغله أمور الدنيا عن عبادته، ثم تطير الكتب فتستقر فى أيدى الناس، إما اليمين منها وإما الشمال، ثم ينصب الميزان، ويتقدم إليه الناس والملائكة يزنون أعمالهم، فإذا رجحت أعمال الخير قسمت للمرء الجنة، وإلا كان مصيره جهنم، وتأتى كائنات من لهب، لتسير بالناس إلى الله، فيقرأ كل إنسان كتابه، ويسأله الله عما اقترفه من شر فى الدنيا وكيف ارتكب هذا الشر رغم ما أفاضه عليه من نعم، ثم يكون حكم الله له أو عليه.

ولكن على الإنسان قبل دخول الجنة أو السقوط فى جهنم أن يجتاز شريطاً ضيقاً حاداً كالسيف قد علق من فوق النار، ليمشى عليه حاملا جميع ذنوبه على ظهره. وكل خطوة فوقه ألم رهيب، ولهيب النار يصعد إليه، ويلفح من فوقه، فمن حكم عليهم زلت قدمه وسقط، فالتهمه الجحيم.

أما الرجل الذى كان خيِّراً فى دنياه فيمشى على الشريط فى يسر وثقة، ويرى الجنة قبل الوصول إلى نهاية الشريط.

وقبل دخول الجنة يغتسل فى عين ماء طاهرة شافية، يرتد بها إلى الشباب، ويتوج بالجمال.. ثم يشرب من عين أخرى فيتطهر من كل آفات القلوب. فإذا ما أتم ذلك كانت له الجنة التى يعرض المحاسبى لها بالوصف بعد ذلك، ووصفه لكل العجائب التى يمكن أن تخطر على بال: فمن أرض الجنة تتصاعد العطور، والقصور عليها من الأحجار الكريمة، والنساء فيها مكتملات الجمال، وينبهر المرء أمام الجمال الساطع الذى يشهده فى هاتيك الحور العين، وهن كثرة يسقين الرجال ما طاب من الشراب، فى كئوس من فضة وذهب حليت باللؤلؤ.

ويرى الدكتور عبد الحليم أن هذا الفصل من كتاب المحاسبى لافت للنظر بما فيه من تصوير بارع للملذات الجسدية مع الحور، ولاشك أن الموضوع مهيأ للتخيلات الشاعرية بصفة خاصة، بيد أن أسلوب المحاسبى فى رسم اللوحات التى ابتكرها فكرة وصل هنا إلى قمة كمالها.

ويمكن القول بأن هذا الفصل واسطة العقد من الكتاب. وإننا لنرى - كما يرى الأستاذ ماسينيون والأستاذ آريرى - أن كل ما جاء به المحاسبى (المؤلف) من وصف مبدع إنما هدفه فى الحقيقة أن يكون

مقدمة - ومقدمة موسيقية مروعة لغتها، لتجلى الذات الإلهية للصفوة المختارة. فإذا ما نال أهل الجنة حظهم من هذا النعيم، نادتهم الملائكة إلى سعادة أخرى.

أن يمتطوا جياداً سماوية، زينت رؤوسها بتيجان من الأحجار النفيسة، فإذا ما وصلوا إلى غايتهم، أجلسوا فى مقاعد وثيرة، وأتم الله إكرامهم بوليمة أطباقها من ذهب، وخدمها الملائكة.

ويواصل المحاسبى وصف ما يلقاه أهل الجنة من رضوان ربهم: ثم ترفع الستر ويتجلى عليهم الله فى روعة كماله، فإذا رأوا الله كان لهم بذلك من السعادة ما لم يقدروا قط على تخيله، فالله الخالد لاشبيه له، ويسلم الله عليهم، ويحدثهم، وينصتون إليه فى شوق، ويشعرون بسعادة لا تُحد، تنزل فى قلوبهم، وتستر وجوهم بانعكاسات هذه السعادة العليا.

وأخيراً يأذن الله لهم بالعودة إلى الجنة، ليعيشوا فيها أبداً خالدين فى النعيم والسعادة التى أفاضها على عباده المخلصين.

* * *